بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا
تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[البقرة: ٢٢]

﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة: ٢٢]

هذه الآية الكريمة جاءت فى مقدمات سورة البقرة، وهى سورة مدنية، وآياتها ست وثمانون ومائتان بعد البسملة، وعلى ذلك فهى أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق. وأول سورة بعد فاتحة الكتاب فى ترتيب سور المصحف الشريف، وقد عظمها رسول الله ﷺ تعظيمًا كبيرًا فقال: «**إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة**». وقد سميت السورة بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التى أجراها الله - تعالى - على يد نبيه موسى - عليه السلام - حين تعرض فرد من قومه للقتل، ولم يعرف قاتله فأوحى الله - تعالى - إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ليخبر عن قاتله ثم يموت وذلك إحقاقًا للحق، وشهادة عملية لقدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى.

ويدور المحور الرئيسى لسورة البقرة حول عدد من الأحكام الشرعية، والقضايا التعبدية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية، والركائز العقدية التى يمكن إيجازها فى النقاط الأساسية التالية:

أولاً: من ركائز العقيدة فى سورة البقرة:

(١) الإيمان بالله - تعالى - وحده - بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(٢) هذا الإيمان يقتضى التسليم بوحدة الرسالة السماوية التى أنزلها ربنا - تبارك وتعالى - على فترة من الرسل، وختمها وأتمها، وأكملها فى القرآن الكريم،

الذى تعهد ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه، فحفظ حفظًا كاملاً فى لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، ليبقى مصدراً لهداية الناس كافة إلى يوم الدين .

(٣) الإيمان بوحدة الجنس البشرى دون تمييز عرقى أو عنصرى أو على أى أساس آخر؛ لأن البشرية كلها أسرة واحدة ينتهى نسبها إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام، وآدم خلق من تراب .

(٤) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، والتحذير من فجائية وقوعها، وأهوالها، والعمل الجاد فى الاستعداد لمواجهتها، وفى ذلك جاء قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم .

ثانيًا: من أوامر العبادة فى سورة البقرة:

(١) الالتزام بركائز الدين من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

(٢) عدم التفرقة بين رسل الله، وترك التفضيل بينهم لله، وتتويج الإيمان بهم جميعًا بالتصديق بالنبى الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وبالرسالة الخاتمة التى أوحيت إليه والتى حفظت فى القرآن الكريم وفى سنته الشريفة .

(٣) ضرورة تلقى الدين بواسطة الأنبياء والمرسلين عن طريق الوحى السماوى، وعرضه على العقل والقلب فى موضوعية وحيدة حتى يصل الإنسان إلى القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والتسليم بأن دين الله مبنى على اليسر، ورفع الحرج، وأن من أصوله الثابتة أنه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ.... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٤) التسليم بأن القتال مشروع فى الإسلام لدفع المظالم، وللدفاع عن الأرض، والعرض، وعن النفس والمال والولد والأهل، وعن الدين ومقدساته، ولتأمين سيادة عدل الله فى الأرض، ولضمان حرية التدين، وللمحافظة على كرامة

الإنسان من أى جور أو طغيان، ولذلك تدعو سورة البقرة إلى الجهاد فى سبيل الله دون اعتداء، وإلى تعظيم منازل الشهداء، وإكبار الجهاد والمجاهدين، وإلى تقدير مقامات الصابرين فى البأساء والضراء، ومقامات الموفين بعهودهم إذا عاهدوا، وإلى غير ذلك من القيم السامية التى تقع من مكارم الأخلاق فى الصميم.

(٥) الدعوة إلى التأمل بعين البصيرة فى آيات الله العديدة المنتشرة فى الأنفس والآفاق؛ لأنها هى كتاب الله المنظور، كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء.

ثالثًا: من قواعد المعاملات فى سورة البقرة:

(١) فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة من الزواج، والطلاق، والعدة، والرضاع وغيرها.

(٢) تدعو سورة البقرة فى مواضع عديدة منها إلى الإنفاق فى سبيل الله، وإلى الإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وتدعو إلى إيثار الخير ونبذ الشر، كما تدعو إلى العمل الصالح المنطلق من الإيمان الصادق بالله، وإلى الاستعانة على كل جليل من الأمور بالصبر والصلاة، وإلى ترك العصبيات العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى نبذ الموروثات المغلوطة، والتقليد الأعمى، وإلى التمسك بتحكيم العقل من أجل الوصول إلى سلامة الحكم فى كل أمر من أمور الحياة، كما تنعى السورة الكريمة على كل من يدعو إلى الحق وفضائل الأعمال ثم ينسى نفسه، وتحذر بشدة من التعامل بالربا وتهدد الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، كما تحذر من كتم الشهادة، وتؤكد المحافظة على حقوق الآخرين بكل وسيلة مشروعة، وتحذر من التساهل فى التعامل مع ديون العباد، وتضع الشروط الواجبة لحفظ حقوق الآخرين.

(٣) مايزت سورة البقرة فى مواقع عديدة منها بين صفات كل من المتقين، والكفار، والمشركين، والمنافقين، وضربت نماذج لكل منهم، وألمحت إلى نعيم المتقين فى الجنة، وإلى عذاب كل من المنافقين والكفار والمشركين فى النار، وصورت

جانبًا من ذلهم وحيرتهم يوم القيامة، وحذرت المؤمنين من موالاتهم أو الركون إليهم فى الدنيا، كما حذرت من متابعة الشيطان الرجيم وأعوانه وجنده.

(٤) وللتأكيد على هذه المعانى والقيم، ألمحت سورة البقرة لقصة أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وإلى جوانب من قصة نبى الله إبراهيم على نبينا وعليه السلام، وأشارت إلى اختلاف أتباع نبى الله عيسى عليه السلام من بعده بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣].

كما تحدثت سورة البقرة عن واقعة تحويل القبلة، وعن قرار الله - تعالى - بجعل أمة الإسلام أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيدًا.

(٥) وختمت سورة البقرة بدعاء إلى الله - تعالى - يهز القلوب والعقول، ويحرك الضمائر والمشاعر حيث تقول : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

من الآيات الكونية فى سورة البقرة

(١) التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه، وإشاراته الكونية تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها (الآية ٢).

(٢) الإشارة إلى أمراض القلوب، ومنها الخوف، والوسوسة، والشك، فى زمن لم يكن معروفًا لأحد شىء من تلك الأمراض (الآية ١٠).

(٣) التمييز بين كل من الضياء والنور والنار، والمقابلة بين الظلمات والنور وهى من الحقائق العلمية التى لم يدركها الإنسان إلا فى القرن العشرين (الآية ١٧).

(٤) ذكر الصيِّب من السماء وهو المطر الغزير الذى يكثر هطوله بالليل، والمصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف، وهو تجمع فريد من الظواهر الكونية التى لم تدرك إلا مؤخرًا (الآية ١٩).

(٥) الإشارة إلى خطف البصر عن طريق النَّظر مباشرة بشيء من التركيز إلى ضوء البرق، وتقديم السمع على البصر (الآية ٢٠)، وهى إشارة إلى تكامل خلق حاسة السمع قبل تكامل حاسة البصر وهو ما أثبتته الدراسات فى علم الأجنة فى العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(٦) الإشارة بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء (الآية ٢١).

(٧) الإشارة إلى فرش الأرض وتمهيدها، وبناء السماء وإحكامها وحبكها، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج مختلف الثمرات بواسطته (الآية ٢٢).

(٨) ضرب المثل بالبعوضة وما فوقها وهى من الحشرات المميزة فى بناء جسدها، والخطيرة فى إيذائها للإنسان (الآية ٢٦).

(٩) التأكيد على أن الموت سابق للحياة ولاحق بها، وأن الله ـ تعالى ـ خلق ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم، ومثل هذه القضايا لا تستطيع العلوم المكتسبة الوصول إليها أبدًا لأنها خارجة عن نطاق القدرة البشرية وإمكاناتها المحدودة (الآية ٢٩).

(١٠) إثبات واقعة فلق البحر وفرقه إلى فرقتين كرامة ومعجزة لنبى الله موسى عليه السلام، ونجاته ومن معه، وهلاك فرعون وجنده، وهى من حقائق التاريخ التى لم تكن معروفة للناس فى زمن الوحى (الآية ٥٠).

(١١) الإشارة إلى انفجار اثنتى عشرة عينًا من عيون الماء بضربة من عصا موسى عليه السلام على الضفة الشرقية من خليج السويس فى منطقة تعرف اليوم باسم «عيون موسى» (الآية ٦٠).

(١٢) الإشارة بالمشرق والمغرب إلى الكون كله (الآيتان: ١١٥ ـ ١٤٢).

(١٣) اتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين والعلم الحديث يؤكد مركزيته بالنسبة لليابسة (الآيات: ١٤٤ ـ ١٥٠).

(١٤) الإشارة إلى حقيقة خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وإلى إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وبث الدواب من كل نوع فيها، وتصريف

الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون، والمعطيات العلمية تؤكد صدق ذلك كله وحجيته (الآية ١٦٤).

(١٥) التأكيد على حقيقة أن الأهلة هى مواقيت للناس والحج (الآية ١٨٩).

(١٦) إثبات ما فى كل من الخمر والميسر من آثام تفوق أى نفع يمكن أن يجتنى من ورائهما (الآية ٢١٩)، والدراسات المتوفرة كلها تدعم ذلك وتؤيده.

(١٧) التحذير مما فى المحيض من أذى (الآية ٢٢٢) والكشوف العلمية كلها تؤكده.

(١٨) التأكيد على حقيقة أن الجنة، أى الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض بالربوة العالية إذا أصابها الوابل - أى المطر الشديد - آتت أكلها ضعفين، وهو لا يضرها باحتمال إغراقها بالسيول لارتفاعها وسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه، وإن لم يصبها وابل فإن الطل - أى المطر الخفيف أو الرذاذ - يكفيها لرى نباتاتها وطيب عطائها، والمقصود أن هذه الجنة تزكو وتزدهر وتثمر سواء كثر المطر عليها أو قل، وهو تشبيه قائم على حقيقة علمية راسخة، تصف إنفاق الصالحين ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم بأنه يزكو عند الله ويطيب، زاد قدره أم قل، كما تزكو الجنة بالربوة زاد المطر عليها أو قل.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على الآية رقم (٢٢) من سورة البقرة وقبل الدخول إلى ذلك أرى لزامًا علىَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين - القدامى والمعاصرين - فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢].

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره : «فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم ﴿الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ : أى مهدا كالفراش، مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات، و﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وهو السقف، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم إليه؛ فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقا لهم ولأنعامهم . ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾». وأضاف : «قال ابن عباس، قال الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم . وعنه أيضا فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه» . وأضاف كذلك : «قال أبو العالية : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أى عدلاء شركاء، وقال مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل» .

وأضاف ابن كثير عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات فى معنى هذه الآية الكريمة تؤيد ما ذهب إليه فى تفسيرها .

* وجاء فى الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - تفسير الهاتين الآيتين الكريمتين ما نصه : «إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . ربهم الذى تفرد بالخلق، فوجب أن ينفرد بالعبادة . . . وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققونه : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . . . لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية، صورة العابدين لله، المتقين لله، الذين أدوا حق الربوبية الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ند ولا شريك» .

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وهو تعبير يشى باليسر فى حياة البشر على هذه الأرض، وفى إعدادها لهم لتكون لهم سكنًا مريحًا وملجأ وافيًا كالفراش . . . والناس ينسون هذا الفراش الذى مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذى جعله الله فى الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب فى مثل هذا اليسر والطمأنينة . ولو فقد عنصر واحد من عناصر الحياة فى هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسى فى غير البيئة التى تكفل لهم الحياة . ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة».

« ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ . . . فيها متانة البناء وتنسيق البناء . . . . . ».

«﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ . . . والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء فى الأرض جميعًا . . . وقصة الماء فى الأرض، ودوره فى حياة الناس، وتوقف الحياة عليه فى كل صورها وأشكالها . . . كل هذا أمر لا يقبل المماحكة، فتكفى الإشارة إليه، والتذكير به، فى معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب».

«وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى : وحدة الخالق لكل الخلائق ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنية بنظام، معينة بالماء الذى تخرج به الثمرات رزقًا للناس . . والفضل فى هذا كله للخالق الواحد : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . . تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، وأنه لم يكن له شريك يساعد، ولا ند يعارض، فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق !».

«والأنداد التى يشدد القرآن فى النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون ـ ولايزالون ـ . . فقد تكون الأنداد فى صور أخرى خفية ؛ قد تكون فى تعليق الرجاء بغير الله فى أى صورة، وفى الخوف من غير الله فى أى صورة، وفى الاعتقاد بنفع أو ضر من غير الله فى أى صورة . . . . ».

وضرب كاتب الظلال عددًا من النماذج ثم أضاف : «هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفى والأنداد مع الله . . فلننظر بحق أين نحن من هذه الحساسية المرهفة؟ وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة ؟!!».

* وجاء فى كل من تفسير الجلالين، وصفوة البيان لمعانى القرآن، والمنتخب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبيها خيرًا ـ كلام مشابه لا حاجة بنا لإعادته .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

أولاً : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ :

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بنحو ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع، منها ٢٩٪ ـ أى نحو ١٤٩ مليون كيلومتر مربع ـ يابسة، ٧١٪ ـ أى نحو ٣٦١ مليون كيلومتر مربع ـ مسطحات مائية، نصفها تقريبا ـ أى نحو ١٧٣,٦ مليون كيلومتر مربع ـ أرصفة قارية، أى أجزاء من حواف القارات مغمورة بالماء . وهذه الضخامة فى أبعاد الأرض جعلتها تبدو مستوية بالنسبة إلى نظر الإنسان وإمكانات حسه .

وكل من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، حيث إن كلاً منهما يتعرج فى تضاريس متباينة ؛ ويقدر ارتفاع أعلى قمة على سطح اليابسة (وهى قمة إفرست) بأقل قليلاً من تسعة كيلومترات (٨,٨٤٨ م)، ويقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة ـ وهى حوض البحر الميت ـ بنحو أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وقاع البحر الميت الذى تصل أعمق أجزائه إلى نحو ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر يعتبر جزءًا من اليابسة لأنه بحر مغلق .

ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات - وهو «غور ماريانا» فى قاع المحيط الهادى بالقرب من جزر الفيليپين - إلى أكثر قليلا من الأحد عشر كيلومترًا (٠٣٣ , ١١كم). وبذلك يصل الفرق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية إلى أقل قليلاً من العشرين كيلومترًا (٨٨١ , ١٩ كم)، وبنسبة ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو ٦٣٧١ كيلومترًا فى المتوسط) يتضح أن الفارق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية لا يكاد يتعدى ٣ , ٠٪ من طول نصف قطرها .

وإذا أخذنا الفرق بين متوسط ارتفاع اليابسة - والمقدر بنحو ٨٤٠ م فوق مستوى سطح البحر - ومتوسط أعماق البحار والمحيطات - والمقدر بنحو ٣٧٢٩ م إلى ٤٥٠٠ م - ونسبنا ذلك إلى نصف قطر الأرض - المقدر بنحو ٦٣٧١ كم - كانت النسبة فى حدود ٠٧ , ٠٪ وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد والفرش لسطح الأرض، خاصة إذا علمنا أن اليابسة بدأت بسلاسل من الجبال شديدة الوعورة، ثم سخر الله - تعالى - عمليات التعرية المختلفة من التجوية والتحات إلى النقل والترسيب فى تسوية تلك السلاسل الجبلية إلى تلال قليلة الارتفاع أو متوسطة، وسهول منبسطة تشقها الأودية والمجارى المائية التى تحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات كما تحملها إلى البحار والمحيطات، مكونة دالات (جمع دلتا) عملاقة ظاهرة ومغمورة تتقدم فى البحار التى تصب فيها، وهنا تنتهى عمليات تعرية سطح الأرض بوصوله إلى مستوى سطح البحر على هيئة سهل تحاتى منبسط .

وقد استمر الصراع بين العمليات الداخلية البانية لسطح الأرض، والعمليات الخارجية الهدمية التى تحاول أن تصل بسطح الأرض إلى مستوى سطح البحر فى دورات متتالية تعرف باسم «دورات شكل الأرض» (أو دورات التحات). وقد ظلت هذه الدورات تعمل على مدى ٦ , ٤ بليون سنة على الأقل حتى تم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وجعله فراشًا للإنسان ولغيره من المخلوقات، وأمكن شق الفجاج والسبل فيه، وتكوين المجارى المائية، والبحيرات الداخلية، والأغوار والمنخفضات الأخرى، وسوف يظل الأمر كذلك حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فى تبادل مستمر بين اليابسة والماء (القارات والمحيطات)، وبين المرتفعات

والمنخفضات، وبين دورات الصخور، وغير ذلك من عمليات الاتزان الأرضى التى سخرها ربنا - تبارك وتعالى - فى تهيئة الأرض لاستقبال الحياة، والتى لا تزال تعمل إلى قيام الساعة . وفى تلك الدورات المتبادلة بين البناء والهدم تكونت السهول الخصبة، والتربة الغنية، والركازات المختلفة من المعادن، والصخور التى تحوى فى أحشائها الكثير من خيرات الأرض التى تجمعت عبر ملايين السنين، فمعدلات تجمع الرسوبيات تتراوح بين مائة ومائتين من السنين لتجمع السنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور المتكونة، **وهذا يعنى أن عمليات تسوية سطح الأرض حتى أصبحت صالحة للعمران قد استهلكت من الزمن والطاقة ما لا تستطيع البشرية مجتمعة أن تقوم بالوفاء بتكلفته، ومن هنا يَمُنُّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - بقوله - عز من قائل - : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾**. وذلك فى مقام الاستدلال على ألوهيته ووحدانيته وطلاقة قدرته فى إبداعه لخلقه.

ثانيا : فى قوله - تعالى - : ﴿ .... وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ :

يَمُنُّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - أنه جعل السماء من فوقنا بناء محكمًا على ضخامة أبعادها، وتعدد أجرامها، وانتشار مختلف صور المادة والطاقة فيها، وذلك بعدد من القوى التى أودعها ربنا - سبحانه وتعالى - فى كل جزئية من جزئياتها، ومن هذه القوى ما يلى :

(١) **القوى النووية الشديدة** : التى تمسك باللبنات الأولية للمادة فى داخل نوى الذرات، ولولاها ما تكونت تلك النوى، ولظل الكون مليئًا باللبنات الأولية للمادة فقط، والتى لا تعنى شيئًا.

(٢) **القوى النووية الضعيفة** : التى تمسك بالإليكترونات وتشدها إلى نوى الذرات، ولولاها ما تكونت ذرات المادة ولبقى الكون مليئًا بنوى ذرات المادة فقط .

(٣) **القوى الكهرومغناطيسية** : التى تمسك بذرات المادة فى داخل كل من جزيئاتها ومركباتها، وهى التى تؤدى إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسى على هيئة

فوتونات الطاقة أو ما يعرف باسم «الكم الضوئى»، ولولا هذه القوة الكهرومغناطيسية لكان الكون مليئًا بذرات العناصر السائبة، ولما كانت هناك جزيئات، ولا مركبات، ولا نور، ولا دفء، ولاستحالت الحياة.

(٤) **قوى الجاذبية** : وهى القوى التى تمسك بأطراف السماء وبكل أجرامها، ومختلف تجمعاتها؛ ولولا هذا الرباط الحاكم الذى أودعه الله ـ تعالى ـ فى كل أجرام الكون ما كانت الأرض ولا كانت السماء، ولو زال هذا الرباط لانفرط عقد الكون وانهارت مكوناته، ومن هنا كانتِ المنَّة الإلهية بجعل السماء بناء .

ثالثا : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ :

أى أنزل من السحاب ماء عذبًا فراتًا لأن المصدر الرئيسى للماء النقى على سطح الأرض هو ماء المطر؛ وذلك لأنه منذ أن أخرج الله ـ تعالى ـ ماء الأرض من داخلها على هيئة بخار الماء الصاعد مع ثورات البراكين، وكثفه فى نطاق المناخ من الغلاف الغازى للأرض الذى يتبرد بالارتفاع، فرده مطرًا سال على سطح الأرض، وفاض إلى منخفضاتها مكونًا البحار والمحيطات، بدأت دورة الماء حول الأرض، ويقدر ما يرتفع من الأرض إلى غلافها الغازى سنويًا بنحو (٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب) من الماء يتبخر أغلبه من أسطح البحار والمحيطات (٣٢٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب)، ويرتفع الباقى من اليابسة (٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب).

ويعود كل ما يتبخر من ماء الأرض إليها ثانية بمشيئة الله وإرادته لينزل منه على اليابسة (٩٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب) وعلى البحار والمحيطات (٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مكعب)، وفى هذه الدورة المعجزة تكسب اليابسة سنويًا (٣٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب) من ماء البحار والمحيطات ينزل عليها مطرًا يجرى ماء على سطح الأرض ويؤدى أدوارًا مهمة على اليابسة ثم يفيض إلى البحار والمحيطات مرة أخرى، وكل الماء المخزون تحت سطح الأرض ـ على كثرته ـ أصله من ماء المطر .

وفى هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض، يتحرك الماء إلى الغلاف الغازى للأرض فيتطهر مما تجمع به من أملاح وملوثات، ويعاود نزوله على الأرض ماء

طهوراً، وتمتد هذه الدورة من نحو الكيلومتر تحت مستوى سطح البحر إلى ارتفاع ١٥ كم فوق مستوى سطح البحر، فيتم بواسطتها تطهير الماء، وتلطيف الجو، وتوفير نسب متفاوتة من الرطوبة فيه، ورى كل من الإنسان والحيوان والنبات، وتغذية كل من الأنهار والجداول، والتربة السطحية، وخزانات الماء تحت سطح الأرض فيعمل على زيادة كمياتها، وعلى تجديد عذوبتها، وعلى تعويض ما يفيض إلى السطح أو يضخ منها، كما يتم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية، وتركيز العديد من المعادن والخامات الاقتصادية والصخور.

وكما يكون فى ماء المطر خير ورحمة، فقد يجعله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عقاباً وعذاباً حينما تؤدى السيول الجارفة أو الفيضانات المغرقة للأنهار والجداول إلى دمار شامل يأتى على الحرث والنسل.

والغطاء الرسوبى للأرض الذى يقدر حجمه بأكثر من ٣٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب يرجع الفضل فى تكوينه إلى دورة الماء حول الأرض، وما بهذا الغطاء من رسوبيات ملحية تقدر كتلتها بملايين الأطنان، ناتج عن عمليات التبخير بعد أن أذابته مياه الأمطار أصلاً من صخور اليابسة ثم حملته إلى البحار والمحيطات ليعود مرة أخرى إلى اليابسة فى دورات التبادل بين المحيطات والقارات، حينما يتحول المحيط إلى اليابسة.

رابعا: فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾:

جاء ذكر إخراج الثمرات من الأرض لتمثل النعمة الرابعة من نعم الله على العباد فى هذه الآية الكريمة، وهى نعمة لا تستقيم الحياة بدونها؛ وذلك لارتباط حياة كل من الإنسان والحيوان بالنبات ومنتجاته خاصة بثمار النباتات العليا. ومن هنا كانت حكمة الله البالغة فى خلق النبات ثم الحيوان، وبعد أن اكتملت كل صور الخلق وهيئت الأرض لاستقبال المخلوق المكرم الذى خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى أحسن تقويم، وجعله أكرم المخلوقات أجمعين، خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ الإنسان منذ فترة لا تتعدى المائتى ألف من السنين بينما تاريخ الحياة على الأرض يرجع إلى ٣,٨ من بلايين السنين، ويقدر أقدم عمر معروف للأرض بحوالى ٤,٦ من بلايين السنين.

وقد جاء ذكر إخراج الثمرات من الأرض فى هذه الآية الكريمة فى تسلسل منطقى جميل، أشار أولاً إلى تكوين التربة بواسطة عمليات التعرية المختلفة ـ من التجوية والتحات إلى النقل والترسيب ـ التى فتتت صخور الأرض، وكونت السهول المنبسطة، والتربة الخصبة اللازمة للإنبات، وجعلت الأرض فراشًا ممهدًا لحياة كل من النبات والحيوان والإنسان . ثم أشارت إلى بناء السماء وأولها الغلاف الغازى للأرض والسحاب المسخر بينهما فى نطاق المناخ الذى خصه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالتبرد مع الارتفاع حتى يتكثف فيه بخار الماء المرتفع من الأرض فيعود إليها مطرا بإذن الله .. ولذلك أشارت الآية الكريمة إلى إنزال الماء من السماء، فأخرج الله ـ تعالى ـ به مختلف الثمرات رزقًا للعباد، وهى من نعم الله العديدة على الإنسان وعلى ما حوله من مخلوقات .

وتشمل الثمرات كل جزء يستخدمه الإنسان من النبات سواء كان هذا الجزء من جذور النبات أو سيقانه أو أوراقه أو أزهاره أو ثماره، وبذلك تقسم الثمرات إلى ثمرات حقيقية وأخرى غير حقيقية . . ومن الثمرات الحقيقية ثمرات الفاكهة، التى تمثل الثمرة فيها مبيض الزهرة بعد تمام إخصابه بحبوب اللقاح، وتكون جنين النبتة فى البذرة (أو البذور) محاطا بالعديد من الأغلفة النباتية لحمايته ولتغذية الجنين فى وقت إنباته، وقد تمثل الثمرة بالبذرة (أو البذور) فى حالات الحبوب والبقول بأنواعها المختلفة . ووظيفة الثمار الأولى هى المحافظة على جنين النبتة فى داخل البذرة (أو البذور) ومده بالغذاء فى وقت الإنبات، ومساعدة هذا النوع من النبات على استمرارية الوجود على الأرض إلى أن يشاء الله، وعلى انتشاره الأفقى فى الأرض بانتشار بذوره، ولولا ذلك لانقرضت أنواع النباتات العليا . ووظيفة الثمار الثانية هى غذاء كل من الإنسان والحيوان .

وتقسم الثمار الحقيقية إلى ثمار بسيطة، ومجمعة، ومركبة، وتقسم الثمار البسيطة إلى جافة، وغضة، أما الثمار المجمعة المركبة فأغلبها غض ؛ والثمار غير الحقيقية هى الثمار التى تدخل فى تركيبها أجزاء أخرى غير المبيض، وهذه أيضا إما أن تكون بسيطة كالتفاح، أو مجمعة كالشليك، أو مركبة من مثل كل من التين والتوت، والفراولة أو قد تكون جزءًا من النبات غير النورة والزهرة .

ومن ثمرات النبات ما يمثل غذاء رئيسيًا للإنسان، ولما يستخدمه من مختلف أنواع الحيوان، ومنها ما يعتبر مصدرًا لكثير من الزيوت والدهون والأصباغ والألوان التى يستخدمها الإنسان فى طعامه وصناعاته المختلفة، ومنها ما يستخدم مصدرًا للعديد من أنواع الدواء التى يحتاجها كل من الإنسان والحيوان فى تطبيب أمراضه، وعلاج أوجاعه، ومن هنا كان إخراج الثمرات من الأرض من رزق الله الذى يمتن به على عباده، ومن الشهادات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق وتنوعه.

خامسا: فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

بعد استعراض جانب من نعم الله على العباد جاء الأمر الإلهى بتحريم الإشراك بالله أندادا لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لنفسها من أمر الله شيئًا، وكل عاقل يدرك أن الله ـ تعالى ـ وحده هو الخالق الرازق ذو القوة المتين، وأن الخلق جميعًا عبيده، ولذلك عندما سئل رسول الله ﷺ: أى الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[1] وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «**أتدرى ما حق الله على عباده؟**» ثم أجاب ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ: بقوله الشريف: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»[2].

هذه الحقائق التى ساقتها الآية الكريمة لتنتهى إلى الأمر بتوحيد الله الخلاق الرزاق العليم، وإلى النهى عن الشرك الذى وصفه ابن عباس بقوله: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل . . . .».

هذه الحقائق الكونية لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وورودها فى كتاب الله المنزل من قبل أربعة عشر قرنًا لمما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، كما يشهد بصدق ما جاء به من الدعوة إلى التوحيد الخالص لله، وعبادته ـ تعالى ـ وحده بما أمر، (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد)، فأشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخارى فى «صحيحة» (٤٤٧٧)، ومسلم فى «صحيحه» (١٤١/ ٨٦).

(٢) البخارى فى «صحيحه» (٥٩٦٧)، ومسلم فى «صحيحه» (٤٨/ ٣٠).